

## اللغة هوية الأمة

الأستاذ الدكتور خالد الكركي  
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

الثلاثاء 6 محرم 1434هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2012م

## اللُّغَةُ وَهُويَّةُ الأُمَّةِ

تَقَفْ هَذِهِ "الواو" بَيْنِي وَبَيْنَ الكِتَابَةِ كَمَا وَقَفَتْ "الكاف" عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ يَوْمَ قَالَ: "كَفَاتِكَ وَدُخُولُ الكَافِ مَنَقَصَةٌ" لِذَلِكَ أَحَذَفُ الواوَ، وَأَعِيدُ العُنْوَانَ إِلَى سَوِيَّةِ أَفْضَلِ: "اللُّغَةُ هُويَّةُ الأُمَّةِ"

وَأَسْتَذْكُرُ فيخْتَهُ الَّذِي أَقَامَ أَلْمَانِيَا عَلَى ثُنَائِيَّةِ: اللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ فِي خِطَابَاتِهِ المَشْهُورَةِ، وَظَلَّ يُنَادِي أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ مَصْدَرُ قُوَّةِ الأُمَّةِ . وَرُبَّ مُسْتَشْرِقٍ أَوْ مُسْتَعْرِبٍ يُبَادِرُنِي بِالقَوْلِ: فَمَا بِالِ أُمَّمٍ تُعَبِّرُ لُغَاتِهَا؟! وَلَهُ أَقُولُ: إِذَا كَانَ أَمْرُ الأُمَّةِ فِي إِدْبَارٍ اخْتَارَتْ لُغَاتِ الغَالِبِينَ عَلَيْهَا، وَفِي إِفْرِيقِيَا وَغَيْرِهَا مِنْ ذَلِكَ نَمَازِجُ . وَإِنْ قَالَ آخَرُ: إِنَّ النَّاسَ فِي الأُمَّةِ الوَاحِدَةِ تَتَعَدَّدُ لُغَاتُهُمْ أَوْ لَهْجَاتُهُمْ حَتَّى تَغْلِبَ إِحْدَاهَا، أَقُولُ: أَمَا نَحْنُ فَقَدْ بَدَأْنَا مِنَ الكَمَالِ مَعًا: أُمَّةً وَلُغَةً، بَدَأْنَا مِنْ أَعْلَى مَا فِي اكْتِمَالِ اللُّغَةِ مِنْ نَحْوِ، وَصَرْفٍ، وَموسِيقَى، وَبِلاغَةٍ، بَلْ نَكَادُ نَكُونُ أُمَّةً أَنْبَتَهَا الكَلَامُ!!.

أَبْدَأُ بِهَذَا وَأَنَا أَرَى أَمَامِي هَذَا الرَّحْمَ الهَائِلَ مِنَ الكُتَابِ وَالبُحُوثِ حَوْلَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ: أَرْمَتِهَا، وَالطَّوَاعِينَ الَّتِي ثَلَاحَتْهَا: الأُمِّيَّةَ، وَالعَامِيَّةَ، وَسَطُوَّةَ اللُّغَةِ الأَجْنِبِيَّةِ... وَتَسْتَطِيعُ تَوْجِيهَ الكَلَامِ لَوْ رَغَبْنَا إِلَى الحَدِيثِ عَنِ الأَزْدِوَاجِيَّةِ، وَالتَّعَدُّدِيَّةِ، وَالعَوْلَمَةِ، وَمَوْقِعِ لُغَتِنَا بَيْنَ اللُّغَاتِ، وَمَا تُرْجَمُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا، وَصِلَتْهَا بِالتَّكْنُولُوجِيَا الحَدِيثَةِ، وَنَسَأَلُ: مَا الَّذِي نُرِيدُ فِي ظِلِّ تَعَدُّدِ اللُّهْجَاتِ؟ هَلْ نُرِيدُ العَرَبِيَّةَ الفُصِيحَةَ أَوْ السَّلِيمَةَ؟ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَسْئَلَةِ وَالتَّحَوُّلَاتِ وَالتَّحَدِّيَّاتِ فِي أَرْمَانِ طَالَتْ عَلَيْنَا حَتَّى وَهَنَ فِيهَا عَزْمُنَا، وَاضْطَرَبَ أَمْرُنَا بَيْنَ هَزَائِمٍ وَنَكْسَاتٍ، وَهَوَانٍ وَتَخَلُّفٍ، وَتَبَعِيَّةٍ وَاسْتِبْدَادٍ، وَفُرْقَةٍ وَخَرَابٍ! \*

\* شطر البيت الآخر: "كالشمس قلتُ وما للشمس أمثال".

أَعْرِفُ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ لِهَوِيَّةِ الأُمَّةِ، كما اللفظ للمعنى في الشعر : جسدٌ للروح حسب ابن طباطبا العلويّ . لا الروح تحيا بلا جسد، ولا الجسد بلا روح. اللغة هي وجدانُ الأُمَّةِ، ووُجُودُها، ووعاءُ مَواجِعِها، وَصَبْرُها، وَرِسالَتُها، رَحيلُها، وَحِكايةُ تاريخِها، وانْتِصارِها وَهَزائِمُها، لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ يَوماً مَطِيَّةً لِأولئِكَ العَوامِّ "الجَهْلَةَ" مِنْ سائِرِ فِئاتِ النَّاسِ، وَأولَهُمْ مُعَلِّمٌ لا يُقِيمُ لِسانَهُ في الصِّفِّ، وَأُستاذُ جامِعَةٍ يَتَعَتَّرُ بِالنَّحوِ وَالإِمالِءِ، وإِعلاميٌّ يَخونُهُ مَحْصولُهُ في الصِّياغَةِ، وَأخيراً سِياسِيٌّ لا يُقِيمُ سِياسَةَ ولا لُغَةَ . أَمّا مَنْ مالَ عَناها إِلى غَيرِها، فَحَسبُهُ غُرْبَةً لِسانِهِ، وَيَكْفِيهِ كَذِبُهُ عَلى النَّاسِ حينَ ادَّعى أَنَّ العَرَبِيَّةَ صَعْبَةُ المِراسِ، أو عَصِيَّةٌ عَلى التَّعَلُّمِ.

على أَنَّ الجَهلَ الأثَقَلَ على الروح هو الجَهلُ بـ "روح" اللُغَةِ؛ بـ "هَوِيَّتِها" ، وإن استقام اللِّسانُ . ليس غريباً أَنْ نُطالِعَ مَنْ لا يَلحَنونَ، لساناً، وَلكِنَّهم يَلحَنونَ، فِكْراً، حينَ يَخْتَرَلونَ هَويَّةَ الأُمَّةِ بِتفاصيلِ غارقةٍ في السطحيَّةِ، وَفتاوى تَخلُجُ منها اللُغَةُ نَفسُها . أولئك يَجهلونَ أَنَّ اللُغَةَ، أَيَّ لُغَةٍ، قد تَتسامحُ مع مَنْ يَخدشُ جِلدِها، بأن يَحدِثَ لَه أن يَخطِطَ مرَّةً، في العَرَبِيَّةِ مثلاً، بينَ لا النافية لِلجنسِ ولا النافية لِلوحدَةِ، لَكِنَّها لَن تَغفِرَ أبداً لِمَنْ يَخدشُ روحَها حَتَّى النَزفِ، بأن يَجهلَ أَنَّها يَوماً اتَّسَعَت لِكُلِّ أَطيافِ الفِكرِ وَالوجدانِ . لَقَدْ اتَّسَعَت لِأبِي بَكرِ الرَازيِّ كما اتَّسَعَت لِلشَافعيِّ، وَاتَّسَعَت لِلغزاليِّ كما اتَّسَعَت لِابنِ رِشدِ، وَلامرئِ القيسِ وَأبِي نَواسِ كما لَكثيرِ وَأبِي العَناهيَّةِ، وَلِلحَلاجِ كما لِابنِ قَيِّمِ، بل وَلأبِي بَشرِ مَتى بنِ يونسِ، المَناطِقِيَّ النَصرانيِّ، الَّذي ناظَرَ أبا سَعيدِ السِرافِيَّ، المَعزَلِيَّ النَحويِّ، وَدافعَ بِلِسانِ عَرَبِيٍّ عَن تَفوقِ عِلومِ المَناطِقِ عَلى عِلومِ اللُغَةِ، بل وَعَن ضرورَةِ تَعَلُّمِ اليُونانِيَّةِ، كما جاءَ في الإِمْتاعِ وَالْمَوانِسةِ . هِيَ اللُغَةُ، هَويَّةُ الأُمَّةِ، الَّتِي رَفَضتْ يَومَ كانتَ حَقّاً أُمَّةً، وَجَهاً واحداً مِنَ الحَقيقةِ . وَلعلَّها، أَيَّ اللُغَةِ، ضَعُفَت بِضَعْفِ روحِها : الحَريَّةِ، وَالفِكرِ، وَالتَّعدُّدِ،

والاختلاف الذي كانت تجمعهم، مهما وصل حدّ التناقض، لغة عربية واحدة، درسها الفارابي في بغداد، روح الأمة الحقيقية، وكان منه ومن أشباهه ما كان.

يعرف الباحثون في مجال اللغة والهوية هذه الحقيقة جيداً، إذ يشيرون إلى معايير لا بُدَّ من توافرها حتى تحمّل اللغة هوية الأمة، منها: إنتاج اللغة في مجال الفكر والثقافة، ودرجة التطور في اللغة ذاتها، والترجمة المتبادلة من اللغة واللبها، بالإضافة إلى قدرة هذه اللغة على الاستجابة للمتغيرات في مجالات: العلم، والاقتصاد، والتكنولوجيا، وغير ذلك من مشاكل اللغة وصعوباتها في زمان غير زمانها.

أدرك أنني بهذا أردد مقولاً، وأكرر مألوفاً، لكنّه تذكير فحسب، فما من موضوع في هذا المجال إلا وقد تمّ بحثه، وما من طريقة أو وسيلة إلا وجدت لها سبيلاً إلى كتابات الباحثين المسكونين بوجع العربية، الحاملين لهمها، لا أولئك الذين تصدّوا لتعليمها وهم عن الحديث بها وعن فهم روحها عاجزون!!

نحاول اليوم أن نقرأ تحولات الأمة، وأنزرها على اللغة لنكتشف أنّ الأزمة ليست في اللغة ذاتها، فاللغة، حتى لو كانت مقدسة، يُصيبها ما يُصيب أهلها من الصغار، فتتأثر حتى تتحلل أركانها، وتسنحيل فصاحتها عجمةً. ونحن اليوم في مجتمعات غابت عنها شمس عروبته وقوميته، وما كان في تلك العروبة والقومية والإسلام من انفتاح وتعدّد، فرمان الأندلس غير زمن النفط، وزمان بني أمية غير زمن بني...

لقد تهالكت اللغة وغدت جسداً نحيلاً رقيقاً برقة شعر العذريين، مخلصاً كإخلاصهم لمن أحبوا، فحفظت ذكرى أزمانها البعيدة الأحبّ.

ولولا أنّ هويّتنا مخبّأة في "اللسان" لضاع من كرومها أكثر من الذي فقدناه، ولصار الحزنُ أبعد غوراً في الروح من المراثي في جمهرة أشعار العرب...

أزْمَةُ اللُّغَةِ اليَوْمِ أَرْمَةٌ مُجْتَمَعٍ مَهْزُومٍ، لا يستطيع إصلاح المنطق، مُنْكَسِرٍ حَضَارِيًّا، مُصَابٍ فِي هُويِّهِ، فاسد في كثير من طباعه، وما زال يبحث عن ذاته. الأزمة كما وصفها د. عبد العلي الودغيري، هي أَرْمَةٌ أَنْظِمَةٌ حُكْمٌ، وَحُكَاةٌ سَمَحُوا لِلنَّاسِ أَنْ يُفْرَطُوا فِي لُغَتِهِمْ حَتَّى ارْتَدَّ مِنْهُمْ الْأَلْسِنَةُ فَصَارُوا عَاجِزِينَ بِاللِّسَانَيْنِ، خَاضِعِينَ لِهُيْمَةِ الْعَوْلَمَةِ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، هَيْمَةٌ حَبَسَتْ لُغَتَنَا فِيهَا، وَحَكَمَتْ عَلَى مَاضِينَا بِالْمَحْوِ وَالنَّسْيَانِ، وَقَيَّدَتْ مُسْتَقْبَلَنَا بِأَغْلَالِهَا حَتَّى صَارَ أَمْرُنَا لِغَيْرِنَا تَبَعًا كَمَا قَالَ الرَّافِعِيُّ، وَكَأَنَّ زَمَانَ بَنِي الْعَبَّاسِ مَا كَانَ أَعْلَى تَجْرِبَةٍ فِي الْعَوْلَمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى مَدَى الْأَزْمَانِ!

وَأَقْتَنَسُ هُنَا نَصًّا مِنْ مُحَاضَرَةِ الدُّكْتُورِ : عَبْدِ الْعَلِيِّ الْوَدُغِيرِيِّ عَنْوَاتُهَا: "وَضْعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي عَصْرِ الْعَوْلَمَةِ، وَتَحْدِيثَاتُهَا"، قُدِّمَتْ فِي الْمَوْسِمِ الثَّقَافِيِّ لِجَمْعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُرْدُنِيِّ سَنَةَ 2011، وَفِيهَا يَنْقُلُ الْوَدُغِيرِيُّ عَنِ تَقْرِيرِ لِيُونِسْكَو سَنَةَ 2003 حَوْلَ حَيَوِيَّةِ اللُّغَاتِ وَتَعَرُّضِهَا لِلانْتِدَارِ: "إِنَّ مَوْقِفَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ إِزَاءَ لُغَتِهِمْ وَاحِدٌ مِنْ أَهَمِّ الْمَعَايِيرِ الْأَسَاسِيَّةِ التَّسَعَةِ لِلْحُكْمِ عَلَى مَدَى حَيَوِيَّةِ لِسَانٍ مِنَ الْأَلْسِنَةِ، وَدَرَجَةِ الْخُطُورَةِ الَّتِي تُهَدِّدُهُ، ثُمَّ يُقَسِّمُونَ هَذَا الْمِعْيَارَ بِدَوْرِهِ إِلَى سِتِّ دَرَجَاتٍ أَهْمُهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ مُتَعَلِّقًا بِلُغَتِهِ، وَيَنْمَتِي لَهَا التَّطَوُّرَ وَالنُّمُوَّ، وَأَدْنَاهَا هُوَ أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ شَخْصٌ يَهْمُهُ مَوْتُ اللُّغَةِ أَوْ بَقَاؤُهَا، وَتِلْكَ هِيَ الْعَلَامَةُ السُّودَاءُ، وَدَرَجَةُ الْخَطَرِ الْأَكْبَرِ...".

اطرَحُوا هَذَا السُّؤَالَ عَلَى الْعَرَبِ إِنْ رَغِبْتُمْ، وَادْفِنُوا الْجَوَابَ، وَاقْرَأُوا  
عَلَيْهِمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجْرَتِ !!

وتذكروا أن لغتكم هي التي كانت خيل المتنبّي تسمع همسها مناجاةً:

وتنصبُ للجرسِ الخفيِّ سوامعاً يخلنُ مناجاةَ الضميرِ تناديا ...

ثمَّ يُنْقَلُ الودغيري عن كلود هاجيج ، مؤلّفِ كتابٍ : "لا لِمَوْتِ اللُّغَاتِ " مقولةً عن لُغَتِهِ:

"اللُّسَانُ الَّذِي يَكُونُ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَحْظَى بِتَقْدِيرِ  
مُسْتَعْمَلِيهِ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ جَمِلاً وَعَنْبِيّاً وَدَقِيقاً، وَيَحْكُمُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ  
أَيِّ لِسَانٍ آخَرَ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْإِزْدِوَاجِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَا  
يُعْبَرُونَ جَيِّداً عَنِ رَغْبَاتِهِمْ إِلَّا بِهَذَا اللُّسَانِ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ حِينَ  
يَكُونُ هُنَاكَ مُسْتَعْمِلُونَ تَجْتَذِبُهُمْ لُغَةٌ أُخْرَى، فَإِنَّهُمْ يَكْفُونَ عَنِ إِعْطَاءِ الْقِيَمَةِ  
اللازِمَةِ لِللِّسَانِهِمْ، وَرُبَّمَا أَحْسَوْا بِالْحَجَلِ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ، وَأَدَّى بِهِمْ فِي النِّهَايَةِ  
إِلَى التَّخَلِّي عَنْهُ...".

وَنَحْنُ بِدَوْرِنَا يَجِبُ أَلَّا نَكُونَ فِي حَالِ الْإِزْدِوَاجِيَّةِ هَذِهِ، فَالْأُمَّةُ مَا تَرَالُ  
قَائِمَةً وَإِنْ لَمْ تَنْطَبِقْ حُدُودُهَا الْيَوْمَ عَلَى حُدُودِ الدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا أَلْفُ

---

\*. حين كتبت هذا النص كنت في صورة الدراسات الحديثة ذات الصلة بالموضوع، وأذكر هنا اثنين من هذه المصادر والمراجع لأهميتها: مؤتمر اللغة العربية ووحدة الأمة، الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربية الأردني، 2011؛ ومؤتمر العربية وهوية الأمة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، 2012، وقد اطلعت على معظم الأوراق التي قدّمت فيه.

عامٍ وتزِيدُ . الأُمَّةُ الَّتِي يُحَرِّزُهَا الإِسْلَامُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِلْعِرْقِ، وَتُحَرِّزُهَا  
الْقَوْمِيَّةُ مِنَ التَّعَصُّبِ لِلطَّائِفَةِ وَالِدِّينِ، وَتُقِيمُ دَوْلَةَ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ مِنْ جَدِيدِ  
سِوَاءِ غَنَى حَسَانِ لِلَّذِينَ : يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ البَّرِيصِ عَلَيْهِمْ ... أَوْ غَنَى  
الأَخْطَلُ لِتَغْلِبَ الَّتِي أَلْهَتْهَا قَصِيدَةٌ وَاحِدَةٌ زَمَانًا بَعْدَ زَمَانٍ!

### اللُّغَةُ وَالسُّلْطَةُ

ليس سؤال السلطة والتسلط بعيداً أبداً عن كونه سبباً رئيساً فيما  
أصاب اللغة، روحاً وجسداً . نعم، الأُمَّةُ ما تزال قائمةً، لكنَّ السُّلْطَاتِ  
متسلِّطة، وشطاياها، ودُولُ، وإماراتُ، وطوائفُ، وفيها مِنْ موجعاتِ القَلْبِ ما  
يَسْتَنْفِرُ دَمْعَ الشَّجِيِّ، وَيَمْتَنِحُنْ صَبْرَ الحَلِيمِ، وَيُهَدِّدُ بِجَعْلِ وَرْدِ رَبِيعِهَا هَشِيمًا  
تَدْرُوهُ الرِّيحُ ... فقد ضيَّعت فتيانها من أزمان بعيدة، وانفصل الحلم عن  
الواقع، وصار لنا ما يزيد على خمسين وزارة ثقافة بينما كان لخليفة الأُمَّة  
كاتب أو بعض كتاب يحرسون السياسة واللغة حتى لا تضيع.

وَاللُّغَةُ أَمَانًا تُوَاجِهُ تَحَدِيًّا عَظِيمًا فِي ظِلِّ اِزْتِيَاكِ فِكْرِ أَهْلِهَا،  
وَاسْتِغْلَابِ عُقُولِهِمْ، وَحَوْلِهَا مِنْ مَظَاهِرِ الإِهْمَالِ وَالنُّكْرَانِ مَا يُغْضِبُ القُرْبِيبَ  
وَالبَعِيدَ، وَيُرْزِلُ حِجَارَةَ قَبْرِ المَعْرِيِّ، وَيَمَسُّ عُنُقُونَ المَتَنَّبِيِّ، وَيَقْتُلُ الحِجَارَةَ  
مِنْ ضَرِيحِ الخَلِيلِ، وَيَجْعَلُ التَّوْحِيدِيَّ، وَعَبْدَ القَاهِرِ، وَالجَاحِظَ حَائِرِينَ فِي  
أَمْرِنَا نَحْنُ الَّذِينَ نَعُدُّ مَا يَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِمِائَةٍ جَامِعَةٍ فِيهَا جَمِيعُهَا أَقْسَامُ اللُّغَةِ  
العَرَبِيَّةِ كَانَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُخَرِّجَ أَجْيَالًا تُحْسِنُ التَّعْلِيمَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ وَقَرْيَةٍ  
وَبَادِيَةٍ، وَأَنْ تُحْرَسَ العَرَبِيَّةُ وَتُرْعَاهَا وَهِيَ تَرَى الأُمَّةَ تَتَرَدَّى سِياسِيًّا فِي  
الأَزْمَاتِ، وَتَهْوِي بِلُغَتِهَا إِلَى القَاعِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جَسَدَ هَوِيَّتِهَا، وَمَنْبِرَ  
خَطَابَاتِهَا، وَعَكاظَ شِعْرِهَا، وَإِلْهَامَ مَتَصَوِّفِهَا، وَحَارِسَ فَنَائِهَا . وَلَكِنَّهَا أُمَّةٌ  
اخْتَارَتْ أَنْ تَقْعُدَ مَعَ القَاعِ عِدِينَ، وَرَضِيَتْ أَنْ تَكُونَ مَعَ الخَوَالِفِ، وَلَيْتَهَا

فَعَلَّتْ مِثْلَ الَّذِي كَانَ فِي الْفَرْنِ الْهَجْرِيِّ الرَّابِعِ حِينَ تَهَاوَتْ السِّيَاسَةُ  
وَصَعَدَتِ اللُّغَةُ وَالْكِتَابَةُ لِتَحْفَظَ عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ، وَأَحْلَامَهُمْ، وَمَعَاجِمَهُمْ،  
وَبِلَاغَتَهُمْ، وَخِطَابَاتِهِمْ، وَفَلَسَفَتَهُمْ، بَلْ وَحَزَنَهُمُ الْقَادِمَ مَعَ الْمَغُولِيِّ وَالصَّلِيْبِيِّ  
الَّذَيْنِ سَيُْمَعِنَانِ فِيهِمْ دَبْحًا وَخَرَابًا، وَخَيَبَاتِ أَمَلٍ لَا يَدْرُؤُهَا عَنْهُمْ إِلَّا كِبَارُ  
آمَنُوا بَعْدَ اللَّهِ بِالْأُمَّةِ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ اللُّغَةَ مُسْتَوْدَعُ أَسْرَارِ الْأُمَّةِ،  
وَرَايَاتِ جُنُودِهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَخْبِرُونِي: مَنْ كَانَ مَعَ  
الْمُعْتَصِمِ، وَيُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ، وَصَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ، وَمُحَمَّدِ الْفَاتِحِ،  
وَالظَّاهِرِ بَيْبَرَسَ وَهُمْ يَخُوضُونَ حُرُوبَهُمُ الْعَظِيمَةَ؟! مَنْ كَانَ مَعَهُمْ غَيْرَ  
الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ اللُّغَةِ؟ أَقْرَأُوا خُطْبَةَ مُحْيِ الدِّينِ بْنِ الرَّكِّيِّ فِي تَحْرِيرِ الْقُدْسِ،  
وَكِتَابَ الْعَمَادِ الْأَصْفَهَانِيِّ فِي "الْفَتْحِ"، وَرَسَائِلَ الْقَاضِي الْفَاضِلِ لَعَلَّنَا نُذَكِّرُ  
نَاسِيًا، أَوْ نُعَلِّمُ جَاهِلًا، أَوْ نُنَبِّئُهُ غَافِلًا! وَهَنَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقُولَ بِكُلِّ وَضُوحٍ:  
إِنَّ غِيَابَ الْقُرَارِ السِّيَاسِيِّ عَنِ حِمَايَةِ اللُّغَةِ هُوَ أَكْبَرُ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ، مَعَ  
اطِّلاعِنَا عَلَى نِيَّاتِ طَيْبَةِ هُنَا وَهُنَاكَ، لَكِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، بَلْ تَنْظُلُّ مِنْ  
بَابِ الدَّعَايَةِ وَالْإِعْلَانِ، وَتَجْمِيلِ الْفَبِيحِ، وَتَفْبِيحِ الْحَسَنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
يَصْنَعُونَ!

## اللُّغَةُ وَ النُّورَةُ

يُظَلُّنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ زَمَانٌ بَدَأَ وَكَأَنَّ مُقَدِّمَاتِ ثَوْرَةِ عَرَبِيَّةٍ شَامِلَةٍ تُظَلُّ  
مِنْ شُرُفَاتِهِ، سَمَّوهُ "الرَّبِيعَ" ثُمَّ أَسْكَنُوا التَّعَصُّبَ وَالْإِنْعِلَاقَ فِي حَقُولِهِ  
وَسَهُولِهِ، وَلَمْ يَقُلْ لَنَا أَحَدٌ إِنَّهُ مَا مِنْ ثَوْرَةٍ دُونَ لُغَةِ سَلِيمَةٍ، وَرِجَالٍ صَالِحِينَ  
مُصَلِّحِينَ يُوَدُّونَ إِسْقَاطَ الْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفَ بِقَدْرِ مَا يَرِيدُونَ إِسْقَاطَ الْإِسْتِبْدَادِ .  
وَهَلْ مِنْ لُغَةٍ غَيْرِ هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَالِيَةِ تَنْهَضُ بِهَذَا الْوَجَعِ كُلِّهِ؟ وَتَحْمِلُ ذَلِكَ  
الْأَمَلَ لِتَبْلُغَ بِهِ مَدَاهُ؟ إِلَّا إِذَا كَانَ بَعْضُنَا يُفَصِّلُهَا عَلَى مَعَايِيرِ الْأَمْرِيكَانِ

الَّذِينَ يُرِيدُونَ مُسْتَبَدًّا مَحْسَنًا مَكَانَ مُسْتَبَدِّ أَكَلَ الدَّهْرَ عَلَيْهِ وَشَرِبَ، بَلْ هُوَ مُسْتَبَدٌّ أَكَلَ كُلَّ شَيْءٍ وَشَرِبَ حَتَّى صِرْنَا نَرُدُّ الْمَاءَ مِنْ عَطَشٍ فَلَا نَجِدُهُ، يُرِيدُونَهَا لَهْجَاتٍ لِأَلْغَاتِ، وَأَحْلَامًا صَغِيرَةً عَاجِزَةً عَنِ حَمْلِ مَبَادِي الْحُرِّيَّةِ، وَالْعَدْلِ، وَالْمُسَاوَةِ، وَالْحَقِّ، وَالْوَحْدَةِ، وَالْوَحْدَةِ الَّتِي تَأْتِي مَرَّةً جَدِيدَةً حَوْلَ الْقُدْسِ . أَقُولُ هَذَا وَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ أَحْلَامَ الْخَائِفِينَ مِنَ الْوَاقِعِيِّينَ ضَائِلَةٌ، تَجْعَلُهُمْ يَخَافُونَ الْمَوْتَ الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَرَأُوا أبا الطَّيِّبِ لاسْتَعَادُوا قَوْلَهُ:

يُحَاذِرُنِي حَتْفِي كَأَنِّي حَتْفُهُ...!

فَهَلْ نَمَلِكُ بَعْدَ هَذَا أَنْ نَمُوتَ كَمَا نَتَخَيَّرُ لَكَمَا يَخْتَارُ لَنَا الْآخَرُونَ؟! وَهَلْ تَزْدَهْرُ مَعَ الرَّبِيعِ الَّذِي يَهْزِجُونَ لَهُ فِي هَذِهِ الصَّحَارَى جَنَائِنُ مُعَلَّقَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ وَقَدْ تَفَنَّتْ وَرَدًا وَرَبْحَانًا؟! لِمَاذَا نَحْنُ إِلَى الْعَبِيدِ أَقْرَبُ مِنَّا إِلَى الْأَحْرَارِ؟ بَلْ نَحْنُ الْعَبِيدُ، وَسَادَتْنَا مِثْلُنَا، "وَكُلُّ يَدْعِي وَصَلًّا بِلَيْلِي" دُونَ أَنْ يَدْفَعَ نَمَنَ وَصَالِهَا، وَيُعْنِي بِالْعَادِيَةِ لِحَرْبٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ طَرْفًا فِيهَا، بَلْ لَا يُرِيدُ لَهَا أَنْ تَقَعَ، وَيَتَعَتَّى بِحُبِّ لَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهُ، وَيَنْتَظِرُ زَرْعًا لَمْ يَحْرَثِ الْأَرْضَ كَيْ تَنْطَهَرَ بِالْمَاءِ مِنْ أَجْلِهِ!

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَوْ أَنَّنَا بَحَثْنَا عَنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ نُدِينُهُ لَمَا وَجَدْنَا، فَكُلُّهُمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَالْبُكَاءِ حَاضِرُونَ، لَكِنَّهُمْ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِقْلِيمِيُونَ، وَعَامِيُونَ، وَطَائِفِيُونَ، وَخَائِفُونَ، وَمُسْتَعْبِدُونَ!! لِلنُّورَةِ مَعْنَى جَدِيدًا، وَهِيَ انْزِيَاخٌ عَنْ مَعْنَى سُلْطَوِيٍّ قَدِيمٍ يَجْعَلُنَا نَتَسَاءَلُ: بِأَيِّ لُغَةٍ يَتَجَلَّى هَذَا الْمَعْنَى الْجَدِيدُ؟ وَبِأَيِّ لُغَةٍ يَتَحَدَّثُ الْخَوَارِجُ الْجُدُدُ مِنْ أُنْبَاءِ الْأُمَّةِ؟ وَكَيْفَ نُنَقِّي النُّورَةَ مِنَ التَّعَصُّبِ، وَالتَّطْرَفِ، وَالانْغِلَاقِ، وَالْخَوْفِ، وَكِرَاهِيَةِ الْخَيْرِ، وَالْحَقِّ، وَالْجَمَالِ؟!!

لِلنُّورَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ تَدْخُلَ مَخَاضَهَا الْأَلِيمَ الْآنَ، وَتَهْزُرَ إِلَيْهَا شَجَرِ الْحُرِّيَّةِ عَبْرَ الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، وَالْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ بَعْدِهَا . أَلَمْ يَشْتَدَّ الْغِنَاءُ بَعْدَ:

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ...؟

ثَوْرَةٌ بَدَأَتْ فِي تَوَسُّسِ احْتِاجَاتِ شَطْرٍ مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ فَقَطَّ كَيْ تَمْتَدَّ عَبْرَ  
هَذِهِ الْبَيْدَاءِ كُلِّهَا، لِتُشَكَّلَ تِلْقَائِيَّةً شَعْبِيَّةً تُحَرِّرُ، وَتُجَدِّدُ، وَتُبْدِعُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا  
بِهَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لَا نَعْرِفُ سِوَاهَا، لُغَتِنَا الَّتِي بِهَا نَعْنَصِمُ، وَمَا نَزَالُ نَأْوِي إِلَيْهَا  
مُنْذُ أَنْ:

"بِكى صَاحِبِي لَمَّا" حَتَّى: "فَتَّحَ الْوَرْدَ فِي جَنَابِينَ مِصْرَ" وَعَبَّرَ مِصْرَ.

نَحْنُ نُدْرِكُ أَنَّ السِّيَاسَةَ فِعْلٌ مُؤَقَّتٌ، وَالثَّقَافَةُ رُؤْيَةٌ رَاسِخَةٌ، وَالتَّارِيخُ  
ثَابِتٌ لَا يَتَبَدَّلُ، أَمَّا الثَّوْرَةُ فَإِنَّهَا إِرَادَةٌ تَتَرَجَّعُ أَمَامَهَا كُلُّ جَدَلِيَّاتِ الْأَنْظِمَةِ  
الَّتِي تُفَاوِضُ عَلَى إِصْلَاحِهَا بَدَلِ إِسْقَاطِهَا، وَكَأَنَّهَا قَاطِرَةٌ صَدِئَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى  
قِطْعِ غَيَارٍ.

اللُّغَةُ وَالنَّاسُ

إِنَّهَا الْعَرَبِيَّةُ، لَيْلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ، عَدْرَاوُهَا، وَعِشْفُهَا، وَنَحْنُ مِنْهَا:

يَقُولُ الْعِدَا، لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْعِدَا قَدْ أَقْصَرَ عَن لَيْلَى وَرَثَتْ وَسَائِلُهُ  
وَلَوْ أَصْبَحَتْ لَيْلَى تَدْبُ عَلَى الْعِصَا لَكَانَ هَوَى لَيْلَى جَدِيدًا أَوَائِلُهُ

وَأَقُولُ: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ تَدْبُ عَلَى الْعِصَا لَا لَيْلَى، وَلَا نَمْلِكُ أَنْ نَرُدَّ

عَنْ صَحْرَائِهَا عَدْوًا وَلَا دَخِيلًا!

مَنْ الَّذِي غَيَّرَ الَّذِينَ حَكَمُوا الْأُمَّةَ وَاسْتَعَمَرُوهَا، وَلُغَتُهُمْ غَيْرُ الْعَرَبِيَّةِ،  
دَفَعُوا لُغَتَهُمْ إِلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ؟! وَمَا الَّذِي غَيَّرَ الْفَقْرَ وَالْجَهْلَ، وَالتَّخَلُّفَ  
وَالنَّعْصَبَ ضَيْعَ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَكْمِلَ نَهْضَةً بَدَأْنَاهَا فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ،  
فِيهَا مَلَامِحُ جَدِيدَةٌ أَرَادَتْ أَنْ تُعِيدَ لِلْعَرَبِيَّةِ أَلْفَهَا، وَلِلْأُمَّةِ هَوِيَّتَهَا، وَتَعُودَ بِهَا

إلى مجدها الغابر، وتوجهها لغةً للعلم، والكتابة، والإعلام، والكلام؟ من ضيع على الناس فرصة الإيمان بأن لغتهم هي هويتهم؟ من الذي حول المدارس، وكثيراً من الجامعات من منابر نور إلى مراكز محو أمية؟ لقد هانت علينا الأمة حتى وصل الهوان إلى اللغة، فدبحناها من الوريد إلى الوريد لولا تلك الفئة المرابطة التي ظلت تحرس العربية في بعض الجامعات، والمجامع، ورؤاد الصحافة والكتابة

ما من أمة إلا وتشارك في المشهد العالمي بفكرها، وفنّها، وإبداعها الذي يتناسب ومنظومتها الفكرية والحضارية، وذلك بلغتها التي تقرأ إنجازاتها، وأوجاعها، وفقرها، وأحلامها التي تزرع فيها الأمل بالمستقبل حتى لو رأت السراب

### حلم الرمال الهاجعات على الظما

لنقنع الناس بذلك حتى لا يدخلهم اليأس، فيموتوا وهم في أماكنهم جامدون! لقد أدخلنا الجامدون والجامدون في التيه، بل في المتاهات والعواصف، وقالوا لنا إننا نتقدم بينما نحن نرتد على أديارنا، وإلا كيف يحترم نفسه من لا يحترم لغته؟! هل كان يدري أن علينا لو كان منا، أن نتوقف عند نصوصنا الشهيرة، فندرسها في بيئاتها، ولغتها، وصلتها بالحياة والناس حتى لا تنقطع الصلة بين الناس ولغة الأمة وتراثها!

ولعلي أوضح هنا أمراً: فليس لنا لغتان جديدة وقديمة، وما من لغة فصيحة وأخرى شبه فصيحة، وليس لنا عصر صعب وآخر سهل، بل لنا لغة هي حياتنا، لغة أنشد الدهر بها قصائده، ثم نام ملء جفونه فيما

## يَسْهَرُ الْخَلْقُ جَزَاهَا وَيَخْتَصِمُ

وَلِي أَنْ أَسْأَلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ : مَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ؟ وَعَلَامَ هَذَا  
الِاخْتِصَامِ؟ عَلَى كِتَابَاتٍ عَامِيَّةٍ، وَإِذَاعَاتٍ عَامِيَّةٍ، وَخِطَابَاتٍ عَامِيَّةٍ لَمْ نَسَلِّمْ  
مِنْهَا الْمَنَابِرُ، وَلَا الْجَامِعَاتُ، وَلَا الْمَدَارِسُ، حَتَّى ظَنَّ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ عَلَى  
جَمْرِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُمْ غُرَبَاءُ، لَا وَاللَّهِ، بَلِ الْغُرَبَاءُ التَّائِهُونَ هُمْ أَصْحَابُ تِلْكَ  
الْعَامِيَّةِ، وَلَوْلَا حُرْمَةُ الْمَكَانِ لَقُلْتُ فِيهِمْ مَا هُوَ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنْ مِثْلٍ:

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ..

اللُّغَةُ وَالْمُسْتَقْبَلُ لِي أَنْ أَبْدَأَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ اللُّغَةِ وَمُسْتَقْبَلِهَا بِأَنْ أَقُولَ:

فَإِنَّ الْجُرْحَ يَنْفِرُ بَعْدَ حِينٍ إِذَا رُمَّ الْبِنَاءُ عَلَى فِسَادٍ !

وَأَسْأَلُ : هَلْ نَحْنُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَصِلُ بِنَا إِلَى غَايَتِنَا؟ أُمَّةٌ تَتَعَلَّمُ  
بِلُغَتِهَا، وَتَعَلِّمُ بِهَا، وَتَنْطِقُ بِلِسَانِهَا، وَتَقْبِضُ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ إِبْدَاعِهَا تَرْجَمَةً  
مِنْ لُغَتِهَا وَالْيَا؟! أَمْ أَنَّنَا:

## نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرًا

صَاحِبِي الَّذِي حَدَّثْتُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِكَيْ لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ، وَقَالَ  
لِي : "إِنَّ الدَّرْبَ هِيَ الطَّرِيقُ فِي الْجِبَالِ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ، فَهَلْ نَحْنُ الَّذِينَ  
نَرْمِي الدَّرْبَ "بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ؟" فَقُلْتُ لَهُ : فَلَنَكُنْ أُنْدُلُسِيِّينَ إِذَنْ، فَقَدْ نَبَّتَتْ مِنْ  
نَخْلَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ ثِقَافَةَ أُنْدُلُسِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ امْتَدَّتْ ثَمَانِيَةَ فُرُونٍ أُيْنَعَتْ  
كِتَابَةً، وَمَوْشَحَاتٍ، وَفَلَسَفَةً غَيْرَتْ وَجْهَ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ انْتَهَتْ غُرْنَاطَةُ (كَمَا  
قَالَ تَشُومُسْكِ / 500 عَامِ الْغُرُو مُسْتَمِرًّا ) انْتَهَتْ ثِقَافَةُ التَّسَامُحِ، وَبَدَأَتْ ثِقَافَةُ  
الْعُنْفِ.

وَمَا تَرَأَى هَذِهِ هِيَ الصَّوْرَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلتَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يُعْطِيهَا :  
ادِّعَاءُ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَالْدِيمُقْرَاطِيَّةِ، وَالْحِفَاطُ عَلَى الْبِيئَةِ، وَتَمَكِينُ الْمَرْأَةِ،  
والتَّعَدُّدِيَّةِ... وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَحْمِلُهُ بَعْضُ قَوْمِنَا الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَاهُمْ  
أَنْفُسَهُمْ، وَأُمَّتَهُمْ، وَاحْتِرَامَ النَّاسِ لَهُمْ، وَسَوْفَ يَمُوتُونَ مَطْرُودِينَ مَرْدُولِينَ.

أَمَّا بَعْدُ

لا أدري: أطويلُ طَريفُنَا أم يطولُ!

وَأَسْتُ أَخْشَى عَلَى الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْانْقِرَاضِ، أَوِ الْمَوْتِ أَوِ الضِّيَاعِ،  
وَإِنْ كُنْتُ أَخْشَى كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ. وَهَذَا نَحْنُ نَنْتَظِرُ زَحَمَ  
النُّوَرَاتِ، وَمَوَاقِفَهَا مِنَ اللُّغَةِ، وَنَقْرًا عَنْ تَائِرِ فَرَنْسِيٍّ اقْتَدَاهُ النَّازِيُّونَ فِي  
الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى الْإِعْدَامِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ تَوْقِيعَ وَرَقَةٍ، لَكِنَّهُ رَفَضَ  
لِوُجُودِ خَطَأٍ فِي تَهْجِيَةِ كَلِمَةٍ بِالْفَرَنْسِيَّةِ فِي النَّصِّ!

وَأَتَسَاءَلُ هُنَا:

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النِّجَمَ فِي الظُّلْمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفِّ وَلَا قَدَمٍ! !

هَلْ نَصِمْتُ وَنَنْتَظِرُ وَهُنَاكَ مِنَ الْبَاحِثِينَ مَنْ يُشِيرُ إِلَى "الانْتِحَارِ  
الْعَرَبِيَّةِ" أَوْ "تَحْرِهَا"؟ فَهَذَا أَنَيْسُ مَنْصُورٌ يَكْتُبُ: "هَلْ تَنْتَحِرُ الْعَرَبِيَّةُ"؟  
وَيَكْتُبُ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَسْدِيُّ: "الْعَرَبُ وَالانْتِحَارُ اللُّغَوِيُّ" وَيُعْطِي مُهَلَّةَ ثَلَاثَةِ  
أَجْيَالٍ لِانْقِرَاضِ الْعَرَبِيَّةِ إِنْ ظَلَّتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، وَيُحَدِّدُ عَبْدُ  
الْعَلِيِّ الْوُدْعَرِيُّ أَشَدَّ الْأَخْطَارِ فَتَكًا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَيُسَمِّيَهَا: "ثَلَاثِي الْمَوْتِ"،  
وَيَقْصِدُ بِهَا: التَّعَدُّدِيَّةَ، وَازْدِوَاجِيَّةَ اللِّسَانِ، وَتَقْرِيطَ أَهْلِ اللُّغَةِ فِيهَا.

أم نترك الخوفَ يتملّكنا ونحن نطالع العدد الأخير من مجلّة العربيّ، الذي كتب فيه سليمان العسكريّ عن "اقتلاع الجذور وتمية الضياع"، موضّحاً كيف اقترحت الشركات الأجنبيةّ في الدول النفطيةّ تشريعات تربط العقارات بالإقامة، "مما يمنحها براءة اختراع تغيير تركيبة سكّان بلدان وطمس هويّتها الوطنيّة والثقافيّة، وربّما الدينيّة كذلك". لقد أدّى ذلك إلى "خلل في اللغة"، إذ أصبحت العربيّة في أغلب دول مجلس التعاون تأتي في المرتبة الثالثة أو الرابعة من بين الإنجليزيّة والهنديّة والأوردو، كما أصبحت الإنجليزيّة اللغة الرئيسيّة للأعمال والتعليم والإدارة.

مُفارقة مؤلمة هي، أن لا يحتاج الوافد لتعلّم لغة بلد عربيّ يعيش فيه، بل قد لا يحسّ فيه بالاعتراب، بينما يحتاج العربيّ لإتقان غير العربيّة إذا ما أراد كسب رزقه في بلد عربيّ هو جزء من تلك الصحراء التي يفترض أنّها أقرب إلى كل عربيّ، تاريخاً وهويّة، من حبل الوريد.

أم نتركُ مساحةً من التّفاؤلِ بمُسْتَقْبَلِ الْعَرَبِيَّةِ وَنَحْنُ نَقْرَأُ تَوْقُعَاتِ: **لوي كالفّي (2010)** عَنْ مُسْتَقْبَلِ اللُّغَاتِ الْعَالَمِيَّةِ الْكُبْرَى وَمِنْهَا الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي تُوكِّدُ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ سَتَحْتَلُّ عَامَ 2025 الرُّبْعَةَ السَّابِعَةَ بَيْنَ اللُّغَاتِ الْعَشْرِ الْأَوَائِلِ فِي الْعَالَمِ، وَحَسَبَ مِعْيَارٍ خَاصٍّ سَيَكُونُ مَرْكَزُ الْعَرَبِيَّةِ فِي الرُّبْعَةِ الْخَامِسَةِ فِي الْعَامِ نَفْسِهِ، وَسَتَكُونُ فِي الرُّبْعَةِ الرَّابِعَةِ عَالَمِيًّا عَامَ 2050، ثُمَّ وَضَعَ ثَلَاثَةَ تَوْقُعَاتٍ عَنْ مُسْتَقْبَلِ اللُّغَاتِ الْكُبْرَى عَامَ 2025 تَنْبَأُ أَحَدُهَا بِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ سَوْفَ تَنْقَدِّمُ إِلَى الرُّبْعَةِ الثَّالِثَةِ، وَسَتَتَرَجَعُ الْفَرَنْسِيَّةُ لِتَنْصَطِفَ خَلْفَ الْعَرَبِيَّةِ.

أم نعيشُ على أملِ استِعَادَةِ لُغَتِنَا مَكَانَتَهَا فِي زَمَانٍ قَادِمٍ وَنَحْنُ نَقْرَأُ شَهَادَةَ الْمُسْتَشْرِقِ الْأَلْمَانِيِّ **يوهان فك:**

قَدْ بَرَهَنَ التُّرَاثُ الْعَرَبِيُّ الْخَالِدُ أَنَّهُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ يُفْصَدُ بِهَا  
زَحْرَحَةُ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى عَنْ مَقَامِهَا الْمُسَيَّرِ، وَإِذَا صَدَقَتِ الْبَوَادِرُ، وَلَمْ  
تُخْطِ الدَّلَائِلُ فَسَتَحْتَفِظُ الْعَرَبِيَّةُ بِهَذَا الْمَقَامِ الْعَتِيدِ مِنْ حَيْثُ هِيَ لُغَةٌ  
الْمَدَنِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

أَمْ نَظَلَّ مَعَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ فِي الْأَرْزَمَةِ الَّتِي تَعِيشُهَا الْأُمَّةُ، وَالتَّحْدِيَاتِ  
الَّتِي تُوَاكِهَهَا؟

وَبَيَّنَ هَذَا وَذَلِكَ نَرَى أَنَّ النُّورَةَ الشَّامِلَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذَ فِي اعْتِبَارِهَا  
لُغَةَ الْخِطَابِ، فَقُوَّةُ اللُّغَةِ فِي أُمَّةٍ مَا تَعْنِي اسْتِمْرَارِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَخْذِ دَوْرِهَا  
بَيْنَ بَقِيَّةِ الْأُمَمِ؛ لِأَنَّ غَلْبَةَ اللُّغَةِ بِغَلْبَةِ أَهْلِهَا، وَمَنْزِلَتُهَا بَيْنَ اللُّغَاتِ صَوْرَةٌ  
لِمَنْزِلَةِ دَوْلَتِهَا بَيْنَ الْأُمَمِ كَمَا يَقُولُ ابْنُ خَلْدُونَ

وَلَا بُدَّ أَنْ يَرْتَقِيَ النَّاسُ مَعَ اللُّغَةِ وَبِهَا إِلَى آفَاقٍ جَدِيدَةٍ تَتَقَلَّبُ مِنْ  
مُجَرَّدِ التَّعْلِيمِ إِلَى فِضَاءَاتٍ مِنَ التَّقَاةِ، وَالْفِكْرِ، وَالْإِبْدَاعِ، وَتَذَكَّرْهُمْ بِدَوْرِهِمْ  
فِي الْمَشْهَدِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ صَوَلَاتٌ وَجَوَلَاتٌ

وَقَدْ يَكُونُ عَنْ كَثْبِ مَنَا يَوْمَ تَعُودُ فِيهِ لِلْعَرَبِيَّةِ مَكَانَتُهَا، وَلِأَهْلِهَا عِرَّتُهُمْ  
بِلُغَتِهِمْ، فَتَلْحَقُ أُمَّتُنَا بِرُكْبِ التَّقَدُّمِ وَالتَّغْيِيرِ، فَمَنْ يَمْلِكُ لُغَتَهُ يَرْتَقِي فِي  
الْأَسْبَابِ، وَتَفْتَحُ لَهُ الْأَبْوَابُ. لَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْحَنِينِ الشُّوْفِينِيِّ لِأَنَّ تَعُودَ  
الْأُمَّةِ "صَائِحاً مُحْكياً" بَيْنَمَا "الْآخِرُ الصِّدْقُ"؛ بَلْ هُوَ وَجَعٌ صَادِقٌ عَلَى  
مَنْ كَادَ أَهْلُهَا يَنْسُونَ أَنَّ أُمَّتَهُمْ مِثْلُهُمْ؛ بِأَصْغَرِيهَا: لِسَانُهَا نِصْفٌ وَنِصْفٌ  
فَوَادِهَا كَمَا أُدْرِكُ زَهِيرَ بِنِ أَبِي سَلْمَى، وَعَلَيْهَا أَنْ لَا تَعُودَ بَعْدَ الْيَوْمِ مُحَضَّ  
صِدْقٍ خَافَتْ لَغِيرِهَا، بِكَيْ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

## التعليقات والمناقشات

### -د. عبدالرحمن الهاشمي/ جامعة عمان العربية

أشاد الدكتور الهاشمي بالبحث قائلاً: "سمعت قصيدة ولم أسمع بحثاً؛ فكانت قصيدة في بحث عبّر فيها الباحث عن روح اللغة العربية واعتبر المشكلة في روح الإنسان العربي"، وتمنى الدكتور الهاشمي لو بين لنا الباحث كيف نربي النفس العربية وكيف ننطلق من هذه النفس ونرفع منها ونحقق لغتنا في نفوس الناشئة بعدما تدهورت اللغة في نفوسهم.

### - أحد الحاضرين

أشار إلى ظاهرة تهافت الأمم على تعليم اللغة لأبنائها، فمنذ سنوات والجامعات الغربية تتهافت على تعليم اللغة لأبنائها كما أن هناك عشرات الأقسام في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية تدرس اللغة العربية وتعنى بها، والغريب أنه لا أقسام اللغة العربية في جامعتنا ولا مجامع اللغة لدينا نهضت لتفعل ما فعل (British Council) خلال مئة عام لنهضة اللغة الإنجليزية، ويقترح وضع صندوق خاص ينفق على تعليم اللغة العربية بتهيئة السبل والبرامج المناسبة لذلك إلى جانب استثمار التكنولوجيا استثماراً سليماً وصحيحاً، ويتمنى على مجمع اللغة العربية أخذ هذا الاقتراح على محمل الجد وأن يطرح للحوار على المستوى السياسي والاقتصادي والتربوي والفكري والاجتماعي؛ فهذه فرصة ذهبية والفرص

أماننا، وملحة أيضاً، كي نقدم لغتنا للآخر، وليس أدل على ذلك من  
تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها.

- أحد الحاضرين

تقدم بسؤال إلى الدكتور خالد الكركي قائلاً: متى نبدأ بالإصلاح؟

- أحد الحاضرين

قال إنه آن الأوان لتعريب التعليم الجامعي واتخاذ موقف جاد بشأن  
تدريس اللغة العربية في جامعاتنا ومعاهدنا، وقد كانت اللغة العربية  
هو مجمع عليه- لغة التدريس في الجامعات في غرناطة، وقرطبة،  
وإشبيلية في الأندلس، وكان الأوربيون يدرسون فيها باللغة العربية.  
وأضاف: جميع الأمم تدرس بلغتها حتى اللغات المغمورة، باستثناء  
اللغة العربية لغة الفكر والحضارة.

- رأفت عبدالعزيز

طلب من الدكتور الكركي توضيح المقصود من عبارته: "هويتنا مختبئة  
اللسان".

- رد الدكتور خالد الكركي

أكد أهمية فكرة التهافت على تعليم الأمم اللغة لأبنائها، وأشار إلى  
تجربة المملكة العربية السعودية في هذا المقام التي أقامت مركزاً لتعليم  
اللغة العربية لغير الناطقين بها. وفي الإمارات يقيمون ذلك أيضاً، ولدينا  
في كل جبل من جبال عمان مركز ثقافي لبلد أجنبي إيطالي أو أمريكي أو

روسي أو فرنسي ... وتساءل لم لا تأخذ جامعة الدول العربية على عاتقها مهمة إقامة مركز ثقافي عربي يتولى تعليم اللغة العربية نيابة عن الأمة؛ فالأمة لم تقم دولتها بعد، ولكن لتقم الثقافة أولاً.

ورداً على من تحدث عن ظاهرة انتحار اللغة العربية كأنيس منصور وعبدالسلام المسدي وغيرهم يرى الدكتور الكركي أن هذه آراء لا يؤخذ بها ولا تستحق الوقوف عندها طويلاً.

واستشهد بما كتبه الدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية في عددها الأخير عن (اقتلاع الجذور وتنمية الضياع) حيث يقول: إن الشركات الأجنبية التي تعمل في الدول النفطية تشترط ربط شراء العقارات من الأجانب بالحصول على الإقامة في ذلك البلد؛ وهذا يمنحهم براءة اختراع في تغيير تركيبة سكان البلد وطمس هويتهم، والعربي الذي يذهب إلى هناك سيكون مضطراً لتعلم لغة أجنبية غير العربية. كما قال: إن العربية تأتي الآن بعد الإنجليزية والهندية والأوردو. وعبر الكركي عن عدم قلق كبير بشأن هذه الظاهرة رغم انزعاجه من التغريب بقرار رسمي من هذا النوع.

وأورد قولاً ليوهان فوك: "قد برهن التراث العربي الخالد أنه أقوى من أي محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي اللغة المدنية الإسلامية"؛ وعلق بقوله: فالعالم يرانا ونحن إذ نرى أنفسنا سنحتفظ بقدر كبير من هذه الأمة بحيث لا تنقرض.

وفيما يخص قضية تعريب التعليم رأى أن هناك إجماعاً حول هذه القضية التي تعد غاية في الأهمية، خاصة في موضوع التدريس باللغة العربية الذي يعد أولى من تعريب العلوم؛ فعلى المعلم أن يدرس باللغة العربية وهكذا فيما يتعلق بالكتابة والنشر والمصادر والمراجع وغيرها.

وفيما يخص عبارة "هويتنا مختبئة اللسان" وضح قائلاً: في حالات الغزو الخارجي كنا نرتدّ إلى الموسوعات ونجمع اللغة والتاريخ والتراث ونخبئه لنستأنف عليه بعد ذلك؛ وقد مرت ظروف أصعب من هذه وأميات ومناطق لا تقرأ ولا تكتب على الإطلاق، لكننا نرى الأمة قادمة والناس يصطفون اصطفافاً حقيقياً، وكل ما يجري الآن هو صراع على أن تعود الأمة أو لا تعود، ويعود الناس إلى سؤال واحد الأمة أو ضد الأمة؟